

الخاتمة

وفي الختام: فإني أضع يدي على بعض أدوائنا، أتلمسها تلمس المحب المشفق الذي يُريد الخير والعز لأمته .

وأخشى أنني كنت قاسياً بعض الشيء في أكثر من موضع، ولكن عذري كما قال الشاعر:

فَقَسَا لِيَزْدَجِرُوا، وَمَنْ يَكْ حَازِمًا فَلَيْقَسُ أَحْيَانًا عَلَى مَنْ يَرْحَمُ

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «المؤمن للمؤمن كاليدين تغسل إحداهما الأخرى، وقد لا ينقطع الوسخ إلا بنوع من الخشونة، لكن ذلك يوجب من النظافة والنعممة ما نحمد معه ذلك التخشين»^(١).

ومن البدهي أن الصالحين مهما بلغت منازلهم ليسوا ملائكة معصومين، بل هم بشر لهم ما لهم وعليهم ما عليهم، وتصويب الأخطاء وتقويمها ضرورة عملية، وممارسة ملحة لاستقامة البناء ونضوجه، وما لم نصارح أنفسنا بأخطائنا، ثم نجد في درئها وعلاجها، فإننا سوف نتحرك في أماكننا ولا نتجاوزها إلى غيرها، هذا إذا لم نترجع إلى الوراء، ونأكل شيئاً فشيئاً!

ومواجهة النفس والحوار معها ليس ضرورة فكرية فحسب؛ بل ضرورة من أجل البقاء، فبالحوار تتجدد الأفكار وتنمو، ويسقط كل زائف ودخيل.

إذاً لكي ننتج، ونتج بعمق لا بد من التفكير - أعني أن يفكر الإنسان بعقله هو لا بعقل غيره - ولن يحيا الإنسان حياة مستقيمة إلا إذا كان يفكر

(١) مجموع الفتاوى (٢٨ / ٥٣).

ويتبصر . . . وينطلق في شتى شؤونه بقناعات راسخة ، أو على الأقل بقناعات راجحة ، وأما الإنسان الميت فهو الذي لا يفكر حتى لو كان يبدو حياً . . . !

ومن اليسير جداً على الإنسان أن يقبل كل ما يطرح ويُقال ، ثم يسير وراء القافلة بالية ساذجة ، ولكن ! من الصعب جداً أن يفكر ويتأمل بوضوح ، ويزن الأمور بموازين علمية متكاملة ، ثم يقف مواقف مستقلة مبنية على تصورات ناضجة ومقنعة ، وشتان بين النهايتين اللتين ستقود إليهما طريقة التفكير والبحث ! ويبدو جلياً أن السواد الأعظم من الناس يميلون إلى الصنف الأول ، فهم يألفون كل ما يطرح ، ولا يحسنون التصرف مع الأحداث وتقويمها تقويماً منهجياً متميزاً .

ولذا كان لزاماً علينا أن نقف مع أنفسنا كثيراً ، وندع الثقة الكاملة في ذاتنا جانباً ، ثم نعيد النظر في أطروحاتنا بكل صراحة ووضوح ، وكما قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى : « وأيضاً - فالتفكير يوقع صاحبه من الإيمان على ما لا يوقعه عليه العمل المجرد ، فإن التفكير يوجب له من انكشاف حقائق الأمور وظهورها له ، وتميز مراتبها في الخير والشر ومعرفة مفضولها من فاضلها ، وأقبحها من قبيحها ، ومعرفة أسبابها الموصلة إليها ، وما يقاوم تلك الأسباب ويدفع موجبها والتميز بين ما ينبغي السعي في تحصيله وبين ما ينبغي السعي في دفع أسبابه » (١) .

وإن التحرر من تقديس الذوات والأبنية الحزبية والتخلص من أسارها ، يفتح أمام الإنسان أفاقاً رحبة من العطاء الفكري والمعرفي ، ويدفعه إلى الإبداع المتميز والإنجاز المستمر ، بعيداً عن الصراعات الكلامية والمحاورات البيزنطية .

ولن نكون كذلك إلا حينما يكون ولاؤنا للمنهج الرباني الكريم مقدماً على ولائنا للرجال والفئات ، ومن أهم أسباب الفشل المتكرر الذي تعاني منه الأمة ؛

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ١٨٠) .

أن نضع رؤوسنا في الرمال ونتغافل عن أخطائنا .

إننا لسنا في حاجة إلى الثناء والمديح ، وعميق الغشائية ونشرها ، والخضوع لسلطان الهوى ، والاستسلام لتبادل المجاملات التي تؤدي إلى الإنهاك الفكري ! ولكننا في حاجة ماسة إلى كلمة صادقة ، ومكاشفة مخلصه ، تتجلى فيها علامات الرحمة ، وآيات المحبة والإخاء ، والرغبة الجادة لتسديد الخلل ، ودرء النقص ، للوصول بالعمل الإسلامي إلى مرحلة النضوج والتكامل .

إن من أخطر المشكلات التي تعاني منها الصحوة الإسلامية : التصدع الداخلي في صفوفها ، الذي أنتج مشكلة الفرقة والتنازع ، ومن أبرز إفرازات هذه الظاهرة : قصور بين في توظيف الطاقات توظيفاً حياً متكاملًا ، وما هذا الخلل الذي تكلمت عنه في هذه الرسالة إلا أثر من آثار هذه المشكلة .

وكثيراً ما كنت أسأل نفسي : ما سر هذه البلاء الذي تعاني منه أمتنا ؟ !

ما سر هذا التدابر والتفرق . . . ؟ !

ثم أقول : لعل سره في قلة العلم والتثبت ، وغياب الحكمة والبصيرة ، والنفس إن لم يكن لها حارس من دين ومن عقل بصير ، وحكمة عميقة ، تفلتت من عقلها وصارت تتخبط في كل مهلكة . . !!

وأقول لشباب الصحوة الإسلامية الأماجد : أتدرون من الذي يفرح بهذا التفرق وينعم . . . ؟ !

إنهم أولئك المنافقون وأشياعهم من دهاقنة الفساد الذين أجلبوا علينا بخيلهم ورجلهم ، وبذلوا قصارى جهدهم حرباً على دين الإسلام وأهله ، وهم يعلمون يقيناً أن هذه الأمة إذا وحدث صفوفها وترابطت فروعها ، فلا يمكن أن تقف في وجهها قوة أرضية - بإذن الله تعالى - مهما بلغت إمكاناتها وقدراتها .

إن ذبول المسلمين واسترخاءهم وتسلبت القوى الاستعمارية على مصائرهم وما يتبع ذلك من مضاعفات، إنما هو من المسلمين أنفسهم، لما تفرقوا وتشرذموا...!

ولهذا كان من أوجب الواجبات علينا: أن ننظر في واقعنا حق النظر، وأن تكون لدينا قراءة فحوصية مستفيضة وواعية بكل أناة وروية لأحوالنا، ثم نسعى بكل جد لتوحيد الصفوف، ولم الشعث، وسل سخيمة النفوس.

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (١٠٢) واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ﴿آل عمران: ١٠٢، ١٠٣﴾.

وقال الله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٩].

وعن جابر بن عبد الله - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الشيطان قد أيس أن يعبد المصلون في جزيرة العرب، ولكن في التحريش بينهم»^(١).

وقال النبي ﷺ: «تفتح أبواب الجنة يوم الإثنين ويوم الخميس، فيغفر لكل عبد لا يشرك بالله شيئاً، إلا رجلاً كانت بينه وبين أخيه شحناء، فيقال: أنظروا هذين حتى يصطلحا، أنظروا هذين حتى يصطلحا، أنظروا هذين حتى يصطلحا»^(٢).

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٣١٣، ٣٣٦)، ومسلم في كتاب صفات المنافقين، باب تحريش الشيطان (٢٨١٢/ ٤) (٢١٦٦).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٢٦٨، ٣٢٩، ٣٨٩، ٤٠٠، ٤٦٥، ٤٨٣)، ومسلم في كتاب البر والصلة، باب النهي عن الشحناء (٢٥٦٥) (٤/ ١٩٨٧).

وقال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة؟ قالوا: بلى، يا رسول الله، قال: صلاح ذات البين، فإن فساد ذات البين هي الحالقة، لا أقول تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين»^(١).

وقد توافرت النصوص الشرعية في تقرير هذا الأصل العظيم وإرساء دعائمه، قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى -: «وهذا الأصل العظيم وهو: الاعتصام بحبل الله جميعاً وأن لا يتفرق، هو من أعظم أصول الإسلام، ومما عظمت به وصية النبي ﷺ في مواطن عامة وخاصة.

وباب الفساد الذي وقع في هذه الأمة، بل وفي غيرها، هو: التفرق والاختلاف؛ فإنه وقع بين أمرائها وعلمائها من ملوكها ومشايخها وغيرهم من ذلك ما الله به عليم، وإن كان بعض ذلك مغفوراً لصاحبه لاجتهاده الذي يغفر فيه خطؤه، أو لحسناته الماحية، أو لتوبته، أو لغير ذلك، لكن يُعلم أن رعايته من أعظم أصول الإسلام، ولهذا كان امتياز أهل النجاة عن أهل العذاب من هذه الأمة بالسنة والجماعة، ويذكرون في كثير من السنن والآثار في ذلك ما يطول ذكره، وكان الأصل الثالث بعد الكتاب والسنة الذي يجب تقديم العمل به هو الإجماع، فإن الله لا يجمع هذه الأمة على ضلالة»^(٢).

ومن جميل ما قيل في هذا الباب من الشعر، قول أحد الحكماء:

(١) أخرجه أحمد (٤٤٤/٦)، والترمذي كتاب صفة القيامة، باب رقم (٥٦)، وحديث رقم (٢٥٠٩) (٤/٦٦٣)، وقال الترمذي: وهذا حديث صحيح، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٥٩/٢).

(٢) خلاف الأمة في العبادات ومذهب أهل السنة والجماعة لابن تيمية، ضمن مجموعة الرسائل المنيرية (١١٧/٣).

انفوا الضغائن بينكم وتواصلوا عند الأبعاد والحضور الشهد
فصلاح ذات البين طول بقائكم ودماركم بتقطع وتفرد
إن القداح إذا جُمعن ورامها بالكسر ذو حنق وبطش أيدي
عزّت ولم تكسر، وإن هي بددت فالوهن والتكسير للمتبدد
فلمثل ريب الدهر أُلّف بينكم بتعاطف وتراحم وتودد
حتى تلين جلودكم وقلوبكم لمسود منكم وغير مسود

وقال الشاعر الآخر:

النمل تبني قراها من تماسكها والنحل تجني رحيق الشهد أعوانا
إذا البداية القوية العملية الجادة لنهضة الأمة من كبوتها هي: الاعتصام بحبل
الله جميعاً، والتعاون على البر والتقوى، وفق الأسس والضوابط الشرعية المقررة
في كتاب الله عز وجل وسنة النبي ﷺ ومنهج السلف الصالح رضي الله عنهم
أجمعين ثم نبذ كل الشعارات التي تفرّق الصفوف وتفسد القلوب، ولقد أثبتت
العقود الأخيرة: إفلاس الشعارات والأطروحات الجاهلية بمختلف اتجاهاتها
الفكرية ونحلها السلوكية، ولم يبق إلا أن تفيء الأمة إلى روح الإسلام
وريحانه، تستقيه من مصادره الأصيلة ومنابعه الكريمة.

ولن نصل إلى هذه المنزلة الجليلة السامقة إلا بفضل الله عز وجل
وكرمه. ثم بعمق وعينا بحقيقة الموقف الذي تقفه الصحوة الإسلامية المعاصرة،
والتحدي الكبير الذي تواجهه ونصرنا لرايتها. بعد ذلك - بكامل التجرد
والإخلاص، وعندها يتحقق وعد الله - سبحانه وتعالى - الذي لا يتخلف:
﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

أما إذا تخاذلنا وفرطنا وشغلتنا أموالنا وأهلونا؛ فوعيد الله لا يتبدل: ﴿وَأِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨].

وختاماً: ما كتبت هذه الورقات إلا وأنا أعلم أنني لست أهلاً لذلك، ولكن الذي دفعني إلى ذلك هو رغبتني في إبراء الذمة ونصيحة الأمة، فإن: «أعظم ما عبّد الله به نصيحة خلقه»^(١)، و«ما تصدّق رجل بصدقة أفضل من موعظة يعظ بها جماعة، فيتفرقون وقد نفعهم الله بها، ونعمت الهدية كلمة من الخير يسمعها الرجل ثم يهديها إلى أخ له...»^(٢).

فأسأل الله - عز وجل - بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يوحد بين صفوفنا على السنة، ويؤلف بين قلوبنا على الخير، ويعيذنا من نزغات الشيطان، ويشبّتنا على القول الثابت في الدنيا الآخرة.

كما أسأله - عز وجل - أن يعيذنا من فتنة القول كما يعيذنا من فتنة العمل.

وصلّى الله على نبينا محمد وآله وسلم

* * *

(١) الرسالة القبرصية (ص ٢٣).

(٢) مجموع الفتاوى (٣٩/١٠).